صفحة مجيدة من تاريخ أمة عظيمة

ليس منا من يجهل عراقة الصين فى الحضارة والمدنية ، ولكن القليل منا ينظر إلى أهل الصين اليوم بالعين التى تمليها تلك المعرفة . فلقد ظلم التاريخ الحديث هذه الأمة العظيمة فأشاح بوجه رضاه عنها ، فإذا هى تعسة بائسة مستضعفة تقاتل قتال الحق امام القوة . . . قتالا مجيداً رائعاً أعواما وأعواما كلَّ العالم كله فى القتال من نصفها عددا ، وتكالبت الأمم القوية عليها... هذه انجلترا النائية ، وتلك اليابان جارتها ، فما وَنت ولا كلّت .

وهذه صفحة من صفحات هذا القتال العظيم تصور أول صفحة من هذه الحرب بين القوة والحق . ولقد نقل التاريخ إلينا هذه الصفحة فى مختلف ظروفها وعصورها ، فإذا هى على اختلافها تتحد فى ظاهرة واحدة ، هى تغلب الحق تغلباً زائفاً فى بدء المعركة ، تغلبا يعجب الأبطال وأشباههم ومن يطربون لسيرهم . ولندع التاريخ يقلب صفحات تلك الحرب العظيمة ويصور صورا مختلفة من مواقف القتال ونتائجه ، نتحد هى أيضاً رغم اختلافها فى أنها تنتهى أبداً بانتصار القوة المادية ، ولنقف نحن أمام هذه الصفحة الأولى نعجب ونطرب ، ونتساءل كيف أمكن لمثل هذه العظمة أن تطأطئ الرأس أمام القوة ولو إلى حين .

ترسم الصورة بلاط الملك جورج الثالث فى لندن آخر القرن الثامن عشر الميلادى ، وقد جلس الملك العظيم على عرشه المكين يستقبل رجالات الدولة ، ويصرف شؤونها فى وقار الملوك العظماء وهيبتهم . وهذا هو اللورد ماكارثى سفير الملك إلى بلاد الصين النائية ، وقد عاد من رحلته الطويلة الشاقة متعبا ولكنه باسم مشرق الوجه لولا شئ من جمود فى حركاته ونظرته . وما كاد يدخل قاعة العرش بعد أن أعلن مقدمه حتى كاد الملك يخف لاستقباله لولا وقار من العرش ، وبرود من الطبيعة والدم . وأقبل السفير وانحنى أمام الملك ،

ونظر إلى الوزراء والحاشية من حوله وقد ملئت نفسه رضا وطمأنينة . نعم هذا هو الزخرف الحق وذاك هو جلال العرش وهيبته ، لا تلك القاعة الفاخرة فى أقاصى الشرق التى زانها فن عجب مسرف فى زخرفه ، دقيق فى نقشه ، يوحى بشئ من السحر الشاذ ، فيحس المرء أمامه أنه فى عالم غريب عنه . ثم هذه الرائحة العطرية الثقيلة تنبعث من جوانب القاعة الكبرى ، فتدير الرأس ، وتسد منافذ النفس . ولم يطل خياله المقارنة بين وطنه وذلك البلد النائى العجيب . لقد أعد خطاباً رائعاً طويلا أخذ يلقيه الآن على آذان هؤلاء السامعين ، والملك العظيم منصت فى شوق ولهفة .

« إن الصين بلد عظيم فى مدنيته عريق فى حضارته . وهو فوق هذا بلد غنى بالخيرات ، قد أسبغ الله عليه نعمة لم يفزبها إلا الأقل من بلاده العديدة ؛ وذلك أنه قد كفى أهله وأغناهم عن غيرهم ، وهو مستطيع أن يكفيهم ويغنيهم ما شاء ، مهما تطورت المدينة الحديثة ، وتعددت مطالب العيش فى ظلها . وسكانه يا مولاى قوم مثابرون على العمل ، مخلصون فيه ، لهم خفة الآلة سرعتها ، وفن الإنسان وحذقه . . . »

وطال حديث السفير عن هذا البلد الشرقى النائى العجيب ، فإذا الملك والقوم من حوله يكادون يستحثونه ليلبئهم بنتيجة سفارته ، فقد بدأوا يملون الإنصات إليه ، وأصبحوا يسمعون جملة وتفوتهم لشرود أذهانهم جمل .

« إنى عاشرتهم فلم أجد أكثر منهم أدبا ، ولا أصدق منهم معاملة ولا ... »

وشرد ذهن المنصتون إليه من جديد . قال الملك مقاطعاً بعد أن طال كلام السفير : « عسى أن تكون قد فزت من إمبراطورهم بالرد الحسن على ما طلبنا إليه . » فقال السفير وقد أدرك أنه أطال : « نعم يا مولاى . وإنه لرجل عجيب فى مظهره ، ولكنه على خلق قويم كريم . ما قابلته إلا باسما راضيا متأدبا مجلا للناس من حوله ، فاستحق بذلك إجلال الغرباء وعبادة شعبه . وإنهم ليعبدونه بأخلص مما يعبد به شعبنا ربه الذى خلقه . » وتدفق بيان السفير من جديد ، فقال الملك مقاطعا : « ولقد نجحت سفارتك إليه . أليس كذلك ؟ » قال : بلى قد نجحت يا مولاى أى نجاح . ولقد حملنى إليك رسالة لم ينبئنى بشئ مما احتوته ، ولكن الهدايا التى أرسلها إلى جلالتكم ، والمعاملة التى لاقيتها منه تنبئ جميعها بأننا قد وفقنا لأكثر مما طلبنا . إنه لعجيب حقا ألا يحدثنى بشئ

فى صدد ما جئت به إليه ، بل كان يقول دائما : رد الرسالة رسالة مثلها . ألبس كذلك ؟ ثم يبتسم ابتسامة ناعمة هادئة . إنه لرجل عظيم . . . » وخشى الملك أن يتدفق بيان الوزير من جديد ، وقد عيل صبره ، فقال فى شئ من الحزم : « هات الرسالة إذن واتلها علينا . » وفض السفير ختم الرسالة الإمبراطورية ، فإذا بها تقول :

« إنكم أيها الملك تعيشون فى منطقة بعيدة نائية ، ولكنكم تريدون فى تواضع أن يعمكم من بركات حضارتنا خير ؛ لذلك أرسلتم سفيركم يحمل رسالتكم فى هيبة ووقار .

« إن فضل أسرتنا العظيمة وأمتنا المجيدة قد عم الآفاق وطبّقها ووصلت أخباره إلى كل أمة على الأرض ، فأرسلت إلينا ملوك العالم أجمع برًّا وبحراً هداياها وخراجها .

« إننا نحن الصينيين نملك كل شىء ، ولا يبهرنا من تلك التحف الجميلة التى عندكم شىء ، بل إن منتجاتكم وصناعاتكم لا محل لها فى بلادنا ، ولا فائدة منها عندنا . . . »

وبدأ الملك يوجس خيفة ، فظهرت أمارات الجد على وجهه البارد الجامد ، ولكنه فى لهفة التطلع إلى ما بعد لم يقاطع سفيره .

« ولقد قبلنا هداياكم التى أرسلتموها إلينا ، لا لشىء إلا لهذا الولاء والإخلاص اللذين أمليا عليكم إرسالها إلينا ونحن فى أقصى البلاد وأنآها ... »

ولم يستطع الملك سكوتاً فقال : « ولاء وإخلاص ؟ لمن ؟ أكمل أيها السفير . »

وبدأ يفهم أن السفير قد بالغ فيما ظن من نجاح سفارته .

« إنا لنحس من خطابكم تواضعاً محموداً خليقاً بأن يحترم . ولقد استقبلنا سفيركم خير استقبال ، ووهبنا له من عطايانا كثيراً ، وأرسلنا إليكم أيها الملك هدايا ثمينة تجد بها بيانا مرفقا بهذه الرسالة . ألا فلتقبلها فى إجلال واحترام . »

ولم يملك الملك نفسه من أن يضحك . بيان بالهدايا حتى لا تختص السفير العزيز نفسه بشئ منها ، فلقد وهب للسفير ما ظن أنه يكفيه ، ولكنه لم يأمن طمعه حتى بعد الشبع ، فأرسل هذا البيان بها . ألا فلأتقبلها فى إجلال واحترام . فى إجلال ! يا للغرور ، عرش مكين بلا جدال ، وحضارة عريقة قديمة بلا ريب ،

ولكن أى شعب اليوم ، وأى مكان بين الأمم فى هذا العصر . ألا رفقا بهذا التعاظم الفارغ الخدّاع . كم يخدع الماضى هؤلاء القوم عن حاضرهم . وجالت هذه الخواطر كلها بسرعة البرق فى رأس الملك العظيم لما توقف السفير هنيهة ليبتلع الإهانة التى أصابته من هذا القصير المزخرف العجيب ، إمبراطور الصين . ألا ما أكثر ما يخدع فيه المرء ! بيان بالهدايا ! وقال السفير تاليا الرسالة الإمبراطورية :

« وأما طلبكم أن تبعثوا من عندكم سفيراً ليعيش فى بلاطنا القدسى الهادى فإن مثل هذا المطلب لا يمكن أن يجاب ؛ فكل أوربى يعيش فى عاصمتنا پيكين محظور عليه أن يغادر الصين ، وأن يكاتب أحداً من بلده ؛ لذلك لسنا نرى كيف يمكن أن تفيدوا شيئاً بوجود سفير من لدنك عندنا . أضف إلى ذلك أن فى أوربا أمما كثيرة غير الأمة البريطانية ، فإذا طلبت كل منها ما طلبتم فخبرنى بالله كيف يمكننا أن نوافق على هذا الطلب ؟ أتريدون من أسرتى الملكية أو من أمتى المجيدة أن تغير من عاداتها أو من طباعها شيئا ، لتنفذ لكم ما تريدونه ؟ »

وتحققت مخاوف الملك . إن السفير قد خدع ولاشك بهؤلاء القوم ناعمى الملمس ناعمى الشعور . إن فى تلك الأجسام الضئيلة الخفيفة الحركة قلوبا مليئة بالغش والخداع . ولكنه أراد أن يتابع الرسالة ، فلم يعلق على سفيره بشئ والسفير فى لهفة الدهشة أخذ يتابع القراءة مبهوتا .

« ولقد طلب سفيركم أيضا أن أسمح لبواخركم بالتجارة فى موانئ أخرى غير ميناء كانتن وهذا طلب مرفوض ، ولن نسمح بتجارة لكم فى أى ميناء آخر غير كانتن . »

ولن نسمح بتجارة لكم فى أى ميناء آخر غير ميناء كانتن ! فيم كان النجاح أيها السفير ! ولما كان هذا هو المطلب الأساسى الذى من أجله رحل السفير رحلته الطويلة الشاقة ، وانتظر الملك انتظاره المترقب المتلهف ، فإن الملك لم يملك نفسه فى مرارة السخرية من أن يقول : « نجاح عظيم بلا شك أيها السفير ! أكمل رسالتك . »

« وأما طلبكم إلينا بأن نسمح لتجاركم بأن يختزنوا بضاعتهم ، ويتاجروا فيها فى پيكين ، فهذا مالا يمكن أن ينفذ عمليا . إن عاصمتى هى المحور الذى من حوله تدور الأرض بأجزائها جميعاً . . . »

وضحك الملك يفرج آلام سخطه وغيظه . المحور الذى من حوله تدور الأرض ! أى غرور وأى تعاظم ؟ وممن ؟ من هؤلاء القوم صغار الأجسام صغار العقول . قال السفير وقد اغتاظ هو الآخر أشد الغيظ : « پيكين . إن أقذر مدينة فى بلدكم أيها الملك لأنظف من پيكين تلك التى هى محور الأرض وعاصمة الكون ! لكم خدعت فيك أيها الإمبراطور العظيم . . . أيها الشين لنج : إنك حقا لعظيم . فقال الملك حانقا هازئا : « لا تنس أن الصين يا مولاى بلد عظيم فى مدنيته عريق فى حضارته ، وأن سكانه قوم مثابرون على العمل مخلصون فيه . » فأكمل السفير قراءة الرسالة وقد كاد يقطع على الملك كلامه :

« وإن قوانين بلدنا للازمة صارمة . وقد حرمت هذه القوانين على الأجانب أن يتاجروا فى وطننا ، فلم يجسر أحد إلى الآن أن يفعل . لذلك ترانى أيها الملك مضطرا لأن أرفض هذا الطلب أيضا .

« إن سفيرك قد طلب إلىّ أيضاً أن أسمح لكم بتعليم دينكم ونشره فى الصين . ولكن الأباطرة العظماء والفلاسفة الحكماء قد علموا الصين منذ فجر التاريخ دينا اعتنقته الملايين من رعيتى ؛ فلسنا فى الواقع محتاجين إلى تعلّم دين جديد . إن الطلب لشاذ ، وهو فى نظرى لايستند إلى أى حجة من منطق أو دليل من تعقل . »

وكرر السفير : «لايستند إلى أى حجة من منطق أودليل من تعقل.» ولكنه خاف أن يكون الملك قد فهم سر هذا التكرار فأسرع بالجملة التالية وكررها هى أيضاً .

« لقد نظرنا دائماً بعين العطف العظيم إلى السفارات التى كانت تأتينا محملة بالهدايا من الممالك التى كانت تتوق حقا إلى بركات مدنيتنا . ولكن طلباتكم تنافى عادات أسرتنا وأمتنا منافاة صارخة صريحة ، ولسنا نرى فائدة يمكن أن نجنيها من إجابتنا لها . إنه لمن واجبك أن تدرك عواطفى ، وأن تتبع فى احترام ووقار تعليماتى . »

قال الملك : «ثم ماذا؟» قال السفير: « انتهت الرسالة يامولاى . » فابتسم الملك هازئا ساخراً مغيظا ، وحنق الحاضرون . ولولا هيبة العرش ووقار الملك لعلّقوا كثيراً .

ولكن التاريخ يسرع ، فيسدل على هذا المنظر أستاره . وتتابعت فصول هذه الحرب بين القوة والحق ، فإذا مناظرها متشابهة وفصولها مكررة . ولكن أيمل التاريخ من التكرار ؟ كلا ! أيتعظ الإنسان من هذا التكرار ؟ كلا أيضاً . ومازالت الحياة مشوقة بأحداثها ، ومازال منا من يتحرق شوقا إلى أخبارها .

سهير القلماوى